الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل

رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد

عمالقة في التاريخ

أرسطا طاليس

من المفارقات العجيبة أن أنواعاً من العبقرية لا ينطفىء نورها ولا ينتهي سطوعها في الوقت الذي تبدأ فيه الأمة بالإنحدار السياسي والتهافت الإجتماعي والإقتصادي.

ولا أدل على ذلك من أن القرن الرابع الهجري الذي بدأ يشهد زوال أمجاد الأمبراطورية العباسية بتحولها إلى دويلات صغيرة ، نقول : لا أدل على ذلك من أن هذا القرن نفسه قد شهد مولد رجال كانوا ولا يزالون قمماً خالدة في ميادين الفكر والأدب والعلم ... لقد شهد هذا القرن مولد كل من أبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعري والفيلسوف الفارابي والحسن بن الهيثم البصري ... وكل من هؤلاء الرجال لعب دوراً خطيراً في ميدانه . ولا ننسى كتلة الفلاسفة والمفكرين والعلماء الذين عرفوا في التاريخ الفكري باسم اخوان الصفا .

****

والشأن هو نفسه عند غير العرب والمسلمين من أمم الأرض لكأن أنفاس الأمة الأخيرة التي تخرج معلنة عن استمرار عبقريتها وأصالتها هي أنفاس أصحاب المواهب الفنية والأدبية والفلسفية والعلمية من أبنائها.

وقد سجلت أثينا اليونانية في حولياتها التاريخية ما سجله العالم العربي الإسلامي. أو ليس أن سقراط الذي شهد في شبابه مجد الأمة اليونانية عامة ومدينة أثينا خاصة ... وأن اليونانيين قد بدأوا يفقدون مجدهم بعد وفاة سقراط عام ٣٩٩ ق.م؟

ولكن الملاحظ أن هبوط اليونانيين السياسي والإجتماعي لم يرافقه هبوط في نشاطهم العقلي ومغامراتهم العلمية ... لقد تابع أفلاطون تلميذ سقراط مسيرة اليونان العقلية الزاهرة فلعب دوراً خطيراً في عالم الفلسفة وترك أثاراً عميقة في الأجيال التي جاءت بعده والتي لا تزال تلعب دوراً في العصور الحديثة.

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا: info@RamadanLawand.com

ثم جاء بعده من جاوزه في قدراته الفكرية والعلمية واستقل بسلطانه الفكري والعلمي بحيث تعارفت الدنيا من بعده على تسميته باسم " المعلم الأول " . صاحب هذه المواهب الخارقة هو أرسطاطاليس الذي ترك في الدنيا من ورائه دوياً بقي صداه يتردد لا في العالم الغربي وحسب بل داخل العالم العربي الإسلامي.

****

والجدير بالذكر أن عصر أرسطاطاليس كان عصر تطور غريب لم يشهد العالم القديم مثله ... لقد سقط في عصره النظام السياسي القديم الذي كان سقراط قد بدأ يعبث به ويسخر برجاله فزلزله من قواعده . وقد بدأ الناس في عصر أرسطاطاليس يقلبون الوجوه فيما حولهم يبحثون عن نظام سياسي جديد يقيل عثراتهم ويعيد إليهم السلطان الذي فقدوه ، كما يعيد للدولة الهيبة التي أضاعتها. فقضت سنة الكون أن تبرز قوة شابة فتية في مقدونيا المجاورة لليونان وأن تفرض نفسهاعلى اليونانيين بعد أن انتصرت عليهم في معركة حاسمة فأصبح فيليب ملك مقدونيا القائد العام الذي انتخبه شعبه المقدوني والأمة اليونانية قائداً عاماً لجيوشهما وأن ينبري لمحاربة ملك فارس . ثم مات فيليب فخلفه ولده الإسكندر المقدوني وتابع ما بدأه أبوه منفذاً خطته لا في إعادة الإزدهار إلى مقدونيا واليونان وحسب بل في السيطرة على العالم القديم المعمور كله تقريباً .

****

في هذا الجو الحافل بالنشاط والحيوية وفي أوساط حافلة بالأطماح مليئة بالأحلام الكبيرة ولد أرسطاطاليس عام ٣٨٥ ق.م. في مستعمرة قريبة من مقدونيا تدعى " ستاجيرا ". ولما كان أبوه نيكوماخوس طبيباً لملك من ملوكها فقد نشأ في القصر المقدوني وتأثر بعادات الأشراف المقدونيين وتقاليدهم .

والواقع أن أرسطوطاليس لم يكن في أخلاقه الشخصية والقيم التي يؤمن بها سقراطياً ولا أفلاطونياً ، وإن تتلمذ على يد أفلاطون الذي تخرج من مدرسة سقراط . لقد كان رجلاً عملياً مقبلاً على الحياة الدنيا راغباً في الاستمتاع بمباهجها لا يضيق على نفسه ولا يتكلف زهداً على طريقة سقراط ولا يتعلق بالمثل العليا على طريقة أفلاطون ، ورغم ذلك وجد في أفلاطون ما يفتنع به وان خالفه في منهجه كما أن أفلاطون قد فتن بهذا التلميذ فتنة شديدة ويقال أنه كان يطلق عليه إسم " العقل " . وبقي أرسطاطاليس ملازماً لأفلاطون يستمع إلى دروسه ويشارك في محاوراته مدة عشرين عاماً حتى إذا مات أفلاطون عام ٣٤٧ ق.م وتفرق عنه تلاميذه انطلق أرسطاطاليس يسير في فجاج الأرض فزار آسيا اليونانية فيما زاره من البلاد ثم عاد إلى موطنه وقد اقتنع

بشيئين اثنين : أولهما أن اليونانيين قد فسدوا وضاعت قوتهم وشاعت الفوضى في صفوفهم . وثانيهما أن بلاد الفرس لم تكل أقل تعرضاً للفساد والفوضى وأن العالم القديم في حاجة إلى عملية تجديد جذري تجعل عاليه سافله وتعيد بناءه من جديد.

****

وبعد عودته إلى بلاده استدعاه الملك فيليب ليشرف على تربية ولده الإسكندر وعلى تأديبه فعاش في العصر المقدوني عدداً من السنين كان فيها المؤدب والمعلم للإسكندر الفتى والمشير على الملك فيليب نفسه.

ومضت الأعوام حتى اذا بلغ الإسكندر أشده وأمسك بزمام الحكم وانتشر بقواته في طول العالم القديم وعرضه وازال ملك فارس واحتل بلاد الشام ومصر وأنشأ مدينة الإسكندرية ثم مات في سن مبكرة جداً وتقسمت امبراطوريته بين أقوى قواده نقض اليونانيون السلطان المقدوني وراحوا يطاردون كل من كانت له صلة به يدخل فيهم أرسطاطاليس الذي لاذ بالفرار من أثينا ثم مات بعد عام واحد في عام ٣٢٣ ق.م.

****

هذه خلاصة غير مستوفية لحياة أرسطاطاليس . وإذا كان هذا المفكر العالم الفذ قد شهد ذهاب مجده وضياع فرص السلامة فإن دوره الحقيقي لم يكن في ميدان السياسة بل كان في ميادين الفلسفة والبحث العلمي. والواقع أن المؤرخين القدماء والمحدثين الذين ترجموا لحياته وتتبعوا أثاره الفلسفية والعلمية يؤكدون أن ما خلفه من المؤلفات بعده شيء ضخم جداً لم يسبق إلى مثله أو إلى ما يشبهه.

الظاهرة التي تلفت النظر في مؤلفاته أنه كان يهدف إلى وضع دائرة معارف تستوعب علوم عصره وتضم تراث اليونان كله ويسجل فيها مذهبه الفلسفي ونتائج البحوث العلمية التي كان يقوم بها بفضل المعونات المالية التي كان الإسكندر يرسلها إليه على فترات.

****

قلنا أن شخصية أرسطاطاليس كانت مختلفة عن شخصيته كل من أفلاطون وسقراط فلم يكن يلجأ إلى الحوار على طريقة سلفية السابقين بل كان عالماً قبل كل شيء يسجل النتائج التي ينتهي إليها بلغة تقريرية خالية من الأجادة الفنية والبيان الساحر. فكتبه نموذج لأسلوب البحث العقلي وأتقانه.

والواقع أن أرسطاطاليس لم يترك فناً من فنون الفلسفة ولا لولوناً من ألوان البحث العلمي إلا عرض له وحاول أن يكون له نصيب في استقصائه جوانبه في حدود ما كان يتيسر له من وسائل البحث والاستقصاء . ويقول الدكتور طه حسين في ص ٢٥٧ من كتابه " قادة الفكر " : " إنما الذي يعنيك من فلسفة ارسطوطاليس هو أن تعلم أن الفيلسوف الوحيد الذي حاول في العصر القديم أن ينظم العلم الإنساني من جهة ويستقصي قوانين التفكير والتعبير والسيرة العامة والخاصة من جهة أخرى ".

هكذا يكون أرسطوطاليس قد قدم إلى القراء من بعده أحدث صورة من صور العقل الإنساني حتى الربع الرابع من القرن الرابع قبل الميلاد.

وبتعبير نستطيع القول بأن في وسع الباحث اليوم أن يجد في مؤلفات أرسطو خلاصة المعارف اليونانية حتى عصره وأن يكون فكرة واضحة عن هذه المعارف حتى ولو لم يبق من التراث السابق عليه أي أثر من الآثار.

وهو لا يقتصر على رواية ما قيل وتسجيل وجهات النظر المختلفة بل ينقد كل الروايات ويميز فيها ما يصح في رأيه وما لا يصح فهو من ناحية صاحب فلسفة شاملة ، وهو من ناحية أخرى ناقد ذكي واسع الحيلة للمذاهب الفلسفية السابقة.

****

وفي وسعنا أن نقسم تراث أرسطوطاليس إلى قسمين : قسم تاريخي " يرجع إليه الذين يتتبعون تاريخ الفلسفة وتاريخ الحياة العقلية عامة ليستعينوا على فهم هذا التاريخ ، وهذا القسم هو المباحث التي تتصل بالطبيعة وما بعد الطبيعة ، فهو يدرس الآن ويدرس درساً دقيقاً لا لينتفع به انتفاعاً مباشراً في الحياة العملية ، بل ليستعان به على فهم العقل الإنساني وما ناله من التطور على اختلاف العصور . والثاني هو القسم الذي أحدث أثاره الطبيعية المعقولة ، وما زال يحدثها ، وسيحدثها أبداً دون أن يناله في ذلك ضعف أو قصور ، أي هو القسم الذي بقي وسيظل صالحاً للبقاء ، والذي لم يستطع العقل الإنساني على رقيه ونضوجه أن يمحوه أو يغير منه قليلاً ، وهو كل ما تركه أرسطوطاليس في المنطق والأدب والأخلاق والسياسة . " ص ٢٥٨ المرجع السابق ".

****

ونحن وإن كنا نشارك الدكتور طه حسين تقديره العظيم لهذا الفيلسوف اليوناني إلا أننا في الوقت نفسه قد لاحظنا ونلاحظ وسجلنا ونسجل أن آراءه المتعلقة بكل ما هو يوناني لا تخلو من نفحات العاطفة التي تتجاوز حدود الرؤية الموضوعية للأشياء والمواقف.

وإذا كنا قد أعربنا عن اعجابنا بالرجل اليوناني العملاق فإن هذا لا يمنعنا من أن نحصر إبداعه في حدود المنطق الذي تنتظم به قوانين العقل الإنساني في البحث والتفكير على اختلاف درجاتهما واطوارهما كما يقول الدكتور طه حسين ذلك لأن هذه القوانين ثابتة لا تتغير وهي ملائمة للإنسان من حيث هو انسان .

أما فيما يتعلق بالأدب والأخلاق والسياسة فإن ما سجله قلم أرسطوطاليس في هذه الميادين لا يعدو أن يكون تعبيراً عن التراث اليوناني السابق، ولا شك أن ما عرفته البشرية من بعد في ميادين الأخلاق والأدب والسياسة قد جاوز إلى حد بعيد الحدود التي بلغها عملاقنا اليوناني .

فالشهادة له هي شهادة لفكرة المنظم وأبحاثه والنتائج الوضعية التي انتهى إليها في حدود الظروف التي كانت تحيط به. ولعلنا لا ننسى رأيه في أن الرق أمر طبيعي جداً تقريراً منه بأن الطبيعة قد أخرجت إلى الدنيا أحراراً وعبيداً . وأن الأحرار يستمدون حريتهم من طبيعتهم الذاتية وكذلك العبيد الذين يستمدون عبوديتهم من طبيعتهم الذاتية .

أما في السياسة فإن الكتاب الذي أعجب به الدكتور طه حسين واعتبره فتحاً في علم السياسة ونقله إلى العربية بعنوان " نظام الأثينين " فهو يدل إلى جهد واسع في استيعاب تاريخ النظم السياسية التي عرفها اليونانيون حتى عصره لكننا لا نرى وجه الإبداع فيه.

****

على أن علم المنطق الذي وضع أرسطوطاليس قواعده وعين به قوانين التفكير عند الإنسان فهو وان كان عنواناً على ابداع متميز ، ورغم أن القرون من بعده لم تسجل غير اضافات قليلة إليه ، وأن أجيالاً كثيرة من المفكرين قد لجأت إليه واستعانت به في تكوين مذاهبها الفلسفية لكن تطور الفكر البشري قد وضع إلى جانب هذا المنطق الذي تعارفنا على تسميته باسم المنطق الشكلي ، مناهج جديدة في البحث لا تقل أهمية عن المنهج الأرسطي . وفي وسعنا القول بأن الوضعية العلمية بمعناها الدقيق قد

ظهرت بعد أرسطوطاليس ظهرت بداياتها في القرون المتأخرة من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ثم بلغت أشدها وفرضت نفسها خلال النهضة الأوروبية الحديثة والتي تعتبر القفزة العلمية النظرية والتطبيقية في عالمنا المعاصر حصيلة ضرورية لها.

ثم أننا لا نستطيع أن نتجاهل الدور الذي قامت وتقوم به منهجية المعرفة المباشرة والتي عبر عنها أبو حامد الغزالي في كتابه " المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال ". لقد كشفت هذه المنهجية عن آفاق معرفية لم ترد في خاطر أرسطوطاليس بل أن حضارة الهند كلها قد صدرت عن هذه المنهجية.

****

ونحن بذلك لا نحاول التقليل من أهمية العطاء الأرسطي الذي بقي معلماً لأجيال عديدة من رجال الفكر ولا سيما الفلاسفة الإسلاميون الذين استعانوا بعلم المنطق الذي تركه وراءه وظنوا أن هذا العلم هو الميزان الذي لا يخطىء طريقه إلى الحقيقة . لكن الفلاسفة الإسلاميين وان لعبوا دوراً كبيراً في تاريخ الفكر الإنساني إلا أن المنطق الشكلي الذي أعجبوا به واعتبروه مصدراً وحيداً لقوانين الفكر الإنساني قد عجزوا عن التعامل مع الطبيعة والكون والحياة باصرارهم على الالتزام بقوانينه فأخطأوا طريقهم إلى النهضة العلمية الحديثة باستثناء أفراد قليلين كان منهم الحسن بن الهيثم البصري وابن خلدون. والمؤسف أن طريقة هذين العالمين العربيين الاسلاميين لم تجد فيمن جاء بعدهما من يتابع طريقتهما في التعامل مع العلوم الطبيعية والعمرانية .

****

إنّ أرسطوطاليس في ضوء رؤيتنا له شاهد باق من شواهد التاريخ الفكري والعلمي بصورة عامة ، وهو عملاق من عمالقة التاريخ لكنه في الوقت نفسه لا يمكن اعتباره الرجل المفكر العالم الذي لم تجاوزه الأجيال من بعده.

فأرسطوطاليس قائد من قادة الفكر لكنه ليس كما يقول الدكتور طه حسين أكبر قائد من قادة الفكر. والبرهان الذي جاء به الدكتور طه حسين في قوله : " إن فلسفة أرسطوطاليس قد سيطرت منذ ظهورها على العقل الإنساني القديم " لا يقوم حجة على صحة زعمه بأنه أكبر قادة الفكر والسبب بسيط جداً هو أن العالم القديم بعده قد جمد وخمدت جذوة الإبداع عنده حتى كانت النهضة الأوروبية الحديثة التي نقضت سلطان أرسطوطاليس وطرحت منهجاً فكرياً ومنطقاً علمياً جديداً.

أما البرهان الثاني الذي جاء به الدكتور طه حسين في قوله بعد ذلك : " أن فلسفة أرسطو طاليس هي التي كان لها الأثر الأكبر في تكوين العقل العربي الإسلامي "، فهو أيضاً لا يقوم حجة له لما سبق أن قررناه من أن هذا العقل لم يستطع أن يخرج من

القالب الأرسطي فكان هذا القالب قيداً له منطلقاً لنهضة علمية وصفية وأن بوادر هذه النهضة العلمية ظهرت عند رجال تجاهلوا منطقه ووضعوا أيديهم على المنهج الوصفي العلمي الحديث.

****

وخلاصة القول : أننا رغم التحفظات التي وضعناها في تقييم فلسفة أرسطوطاليس لا نزال نجد فيه المفكر العملاق ولكنه ليس المفكر الأوحد كما حاول الدكتور طه حسين اثباته في كل ما كتبه لا عن أرسطوطاليس وحسب بل عن التراث اليوناني كله .

****

على أن طه حسين لم يقف حبه عند التراث اليوناني ولم يناد بضرورة تعليم الطلاب في الجامعات العربية اللغة اليونانية وحسب بل نادى أيضاً بضرورة تعليم هؤلاء الطلاب اللغة اللاتينية واعتبر هاتين اللغتين المفتاحين الوحيدين الأساسيين لاستيعاب الثقافة الانسانية الخالدة كما يقول . وفي كتابه " مستقبل الثقافة في مصر " وفيما أعرب عنه من الأسف على جهل الطلاب الجامعيين العرب لهاتين اللغتين الآية والعلامة على ما كان يتولاه من الهيام بالثقافتين اليونانية واللاتينية. يكفي أن نسترجع رأيه في أرسطوطاليس في نهاية الفصل الذي تحدث فيه عنه في كتابه " قادة الفكر " والذي جاء فيه قوله: " إذاً فهذا الإسم " أي أرسطوطاليس " من الأسماء الخالدة التي قد تكون أشد من الدهر قدرة على البقاء " كذا " أن صح هذا التعبير . ومن أراد أن يبحث عن قادة الفكر فلن يستطيع أن يوفق إلى إجادة البحث واحسانه إلا إذا عني بأرسطوطاليس وفلسفته وانزلهما منزلتهما الحقيقية ، وهي المنزلة الأولى ".

****

إن الدكتور طه حسين بمثل هذه التعليقات لا يصدر عن عقل موضوعي بمعزل عن العاطفة بل يصدر عن حماسة كاتب يتحدث بلغة شاعر أو بلغة داعية من الدعاة . وقد نجد له عذراً في موقفه هذا لأن ما تلقاه في الأوساط الثقافية الفرنسية استخف رصانته الفكرية فراح يتحدث حديث القلب لا حديث العقل الموضوعي الرصين.

ومهما يكن موقفنا من الدكتور طه حسين في الطروحات التي سجلها حول الثقافة اليونانية اللاتينية فاننا لا نزال عند رأينا من أن أرسطوطاليس أحد قادة الفكر في العالم وعملاق بين عمالقة التاريخ الإنساني .